

مفهوم وأصول المقدس الديني عند اللوبيين (قدمات المغاربة)

The Concept and Origins of the Sacred in the Religion of the Libyans
(Ancient Maghrebis)



د. أحمد بالعجال

جامعة الوادي (الجزائر)

ahmed302512@gmail.com

د. محمد الحاكم بن عون*

جامعة الوادي (الجزائر)

benaoun-mohammedelhakem@univ-eloued.dz

مخبر إسهامات علماء الجزائر في العلوم الإسلامية جامعة الوادي (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2025/08/01 تاريخ القبول: 2025/11/22 تاريخ النشر: 2025/12/16



ملخص:

يستكشف هذا المقال أصول ومفهوم المقدس الديني عند اللوبيين؛ وهم قدماء المغاربة، من خلال تحليل العوامل التاريخية والجغرافية والثقافية التي شكلت معتقداتهم. ويعتمد البحث على دراسة النقوش الأثرية والآثار المعمارية والأساطير لرسم صورة واضحة للممارسات الدينية في المغرب القديم. كما يتناول التأثيرات المتبادلة بين الحضارات المجاورة مثل الفينيقيين والقرطاجيين¹ والرومان، وكيف ساهمت هذه التفاعلات في تطور مفهوم المقدس. تكمن أهمية البحث في تعميق فهم الهوية الثقافية للمغرب القديم وإبراز دور اللوبيين في تشكيل التراث الديني لشمال إفريقيا.

الكلمات المفتاحية: المقدس؛ الديني؛ اللوبيون؛ المعتقدات؛ الوثنية؛ الآلهة.

* المؤلف المراسل

Abstract:

This article delves into the origins and concept of the sacred among the Libyans, the ancient Moroccans, by analyzing the historical, geographical, and cultural factors that shaped their beliefs. The research relies on the study of archaeological inscriptions, architectural remains, and myths to paint a clear picture of religious practices in ancient Morocco. It also explores the mutual influences between neighboring civilizations such as the Phoenicians, Carthaginians, and Romans, and how these interactions contributed to the evolution of the sacred. The significance of this study lies in deepening the understanding of the cultural identity of ancient Morocco and highlighting the role of the Libyans in shaping the religious heritage of North Africa

key words: sacred; religious; lobby; beliefs; pagan; gods.

مقدّمة:

شكّلت المعتقدات الدينية للوبيين (قدماء المغاربة) نظاماً روحياً معقداً يعكس تفاعلهم العميق مع بيئتهم الطبيعية والاجتماعية. وتميزت هذه المعتقدات بخصائص فريدة تجسّدت في عبادة القوى الطبيعية والحيوانات والأجرام السماوية، مما يشير إلى رؤية كونية تقوم على الربط بين العالم المادي والماورائي.

تعود جذور هذه المعتقدات إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث تشير الأدلة الأثرية من العصر الحجري إلى ممارسات طقسية مبكرة ارتبطت بالمواقع الطبيعية مثل الكهوف والصخور. وقد تطوّر هذا النظام الاعتقادي عبر الزمن تحت تأثير عوامل متعددة؛ أهمها: البيئة الجغرافية، والتفاعل الحضاري، والبنية الاجتماعية.

تميز المقدس الليبي بسمتين رئيسيتين: التعددية في تجليات القداسة من جهة، والاستمرارية التاريخية من جهة أخرى. فمن عبادة الكباش المقدس إلى تقديس الشمس والقمر، ظهرت أنماط متداخلة من الممارسات الدينية التي تعكس ثراءً فكرياً وروحياً. وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة عن الإشكالية الآتية: كيف تشكل مفهوم المقدس الديني عند اللوبيين؟ وما هي العوامل التاريخية والثقافية والجغرافية التي أثرت في تشكيل هذا المفهوم؟

وتسعى هذه الدراسة لتتبع تطور مفهوم المقدس عند اللوبيين من خلال تحليل المصادر الأثرية والنقوش والكتابات التاريخية، بهدف الكشف عن الخصائص الجوهرية لهذا النظام الاعتقادي وآليات تحوله عبر العصور.

المبحث الأول: المقدس عند المغاربة القدامى

أولاً-أصول المعتقدات المغاربة القديمة:

المعتقدات الدينية المغاربة قبل وصول التأثيرات الفينيقية- ثم فيما بعد الرومانية- هي صورة غير واضحة. فما توصل إليه الأثريون في عصور ما قبل التاريخ. لا يسمح لنا بمعرفة أكثر من الطقوس الجنائزية، وهذا ما دفع بالباحثين إلى اللجوء إلى الأدلة المأخوذة من المؤلفين القدامى، مستعينين بنقوش العصر الروماني. دون التأكد من أن العادات والتقاليد التي نتحدث عنها موجودة في الفترة البعيدة.² ونستطيع إرجاع غموض صورة المعتقدات المغاربة في هذه الفترة إلى:

■ صعوبة استخلاص الشواهد الدينية من المصادر المادية؛ كالنقوش والآثار المتوفرة في منطقة المغرب؛ ذلك لأن عدم فك رموز النقوش الليبية وقراءة نصوصها ثم عدم توفر الأساطير والنصوص الكتابية مثل ملحمة "جلجامش" وبدء الخليقة السومرية في بلاد ما بين النهرين تجعل مهمة الدارس صعبة للغاية إن لم تعفه عن الوصول الى نتائج مؤكدة.³

■ ندرة المصادر الكتابية والمادية؛ والتي يشوبها في كثير من الأحيان الخلط والتناقض. بالإضافة إلى صعوبة معرفة أصولها نظرا للتمازج الذي عرفته عبر العصور.⁴

■ إن خريطة الديانات بالمغرب القديم كانت معقدة الخطوط ومتداخلة الألوان حيث تعايشت في المغرب معتقدات متباينة الأصول-وربما كان بعض الناس من عبدة معبودات مختلفة، وقد أدى هذا التنوع والتمازج في المعتقدات إلى صعوبة

الوقوف على حقيقة تلك الديانات كما كانت بالفعل قبل انتشار المسيحية.⁵ ولتجاوز هذه الصعوبات ورسم صورة واضحة بعض الوضوح عن الديانات التي كانت موجودة في بلاد المغرب؛ عمد علماء الاجتماع الديني إلى محاولة سحب العادات والتقاليد الباقية في فترة العصور الوسطى والحديثة، والتي يعتقد أنها صورة لمثيلاتها من العصور الماضية قبل الإسلام.⁶

أما بخصوص المصادر فإن أقدم النصوص وأكثرها أهمية هي نصوص هيرودوت التي تضمنت أخبارا تفيد في جملتها أنّ الليبيين عبدوا الشمس والقمر وكانوا يقدمون لها القرابين والأضاحي -وقد أيدت الوثائق الأثرية رواية هيرودوت حيث تم العثور على رسم كبش يحمل بين قرنيه قرص الشمس⁷- ومن خلال البقايا الأثرية يمكن أن نرجع اهتمام المغاربة بالمعتقدات الدينية إلى:

أ- **العصر الحجري القديم الأسفل:** عُثر على عدد من الآثار المادية التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأسفل؛ تثبت اتجاه الإنسان إلى الاهتمام ببعض المقومات المعنوية في حياته الأولى. وقد نمت هذه الأفكار الاعتقادية جنبا إلى جنب مع نتاجه المادي، مكونة بذلك التكامل الحضاري الذي يعتبر من أهم خصائص الكائن الإنساني. وقد قام العلماء بالبحث عن أقدم مراحل حضارة الإنسان في المغرب القديم. وعُثر فعلا في هذا الصدد على عدد من المواقع الأثرية التي تمثل هذه المرحلة.⁸

ب- **العصر الحجري القديم الأوسط:** عثر الأثريون على كوم متناسق من الكرات الحجرية الكبيرة الجيدة التشذيب في موقع EL QUATTAR القطار بتونس، تعود إلى هذا العصر. وقد توسط هذا الكوم الحجري الموقع الأثري. الذي يصعب البث في حقيقة تفسيره، هذا الكوم الحجري من حيث الغرض من وجوده، ولكن يمكن الاستدلال ببعض الظواهر الأثرية التالية من الناحية الزمنية.

محاولة عمل نوع من الترابط بينهما وبين الأكوام السابقة. حيث يجتمع عندها الإنسان معتقدا بوجود قوى مقدسة تتخذ من هذا المكان منزلا لها. فيحاول التقرب إليها لاسترضائها وللإطمئنان إلى معاونتها له في مختلف مجالات حياته⁹

ج- **العصر الحجري القديم الأعلى:** من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن إنسان هذه المرحلة كان لا يزال يبحث عن الأمان في حياته ومصيره؛ لأنه كما سبقت الإشارة إلى تخصيص مكانه في الموقع الأثري كمركز له في مجال إعتقاده فقد اتجه أيضا إعتقاده إلى محاولته التقرب من هذه القوى المتحكمة في حياته. وحياء البيئة المحيطة به فبدأ يتصور مشاعره في أشكال حيوانية وإنسانية تعبّر عن بعض مفاهيمه الأولى. كمحاولة منه للوصول إلى الأمان والاطمئنان. ورضا هذه القوى الخفية عنه. وأيضا التخلص من النواحي الشريرة وإبعاده عن مجالات حياته لذلك شكّل مشاعره في صور أقنعة تحميه من جميع هذه الاعتقادات في المراحل التالية أثناء العصر التاريخي.

وتُعبّر النقوش التي عثر عليها في موقع "المكتا" (EL MAKTA) جنوب تونس. عن أفكار إنسان هذه الفترة. وكذلك الحجر الجيري الذي أخذ أشكال معينة. ربما تماثيل أقنعة إنسانية أو حيوانية، وأحيانا تمثل عضو التذكير ورموزا أخرى وكانت هذه الأشكال تعلق أو تحمل، بدليل وجود ثقوب فيها لهذا الغرض.¹⁰

ج- **العصر الحجري الحديث:** وبعد هذا العصر بمثابة ثورة في حياة الإنسان حيث تمكن من إنشاء المنازل الخاصة بموتاه (أي المقابر)، وكذلك المعابد لأول مرة. في التاريخ الإنساني، وفي هذا العصر ارتقى الإنسان بتصوراته وأفكاره فعبّر بذلك عن طريق النقوش. أما موضوعات هذه النقوش فتغلب عليها الطقوس الحيوانية بالإضافة إلى رموز يصعب تفسيرها. وهناك إمكانية وجود

غاية سحرية في هذه الرسوم على أساس تصور الإنسان وإظهار تحكمه فيها ليحلّ في طياته معنى تجسيم هذه الفكرة.¹¹

ويجمع الباحثون على أن منطق المغرب القديم تتوفر على أقدم الوثائق حول أصول الإنسان القديم ويبدو أن الإنسان القفصي قد مارس بعض الشعائر الدينية منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. وفي عصره تبدأ صورة معتقداته الدينية في الوضوح. ويتضح ذلك من خلال البقايا الأثرية. وعند قدوم الفينيقيين في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد كانت بلاد المغرب تتوفر على مواقع مقدسة تعبد فيها مقدسات محلية.¹²

لقد رأينا هنا أن المقدس في المغرب قديم قدم الإنسان، ومن المسلم به أن المقدس متنوع ومتباين من الناحية الجغرافية والزمنية عموماً¹³ لذلك سنحاول معرفة هل بقي هذا المقدس على نفس الصورة أم أنه تطور؟ وإذا كان كذلك فما هي ظروف هذا التطور أو التحول؟

ثانياً- مفهوم المقدس عند المغاربة القدامى:

دأب المؤرخون والمهتمون بمقارنة الأديان أن يبدأوا كتابتهم عن المقدس -الدين؛ الإله- بمجموعة من التعاريف بمصطلح الدين؛ وهو ما يتلاءم مع مفهوم المقدس اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي، وهو ما لا يتفق في غالب الأحيان مع ذلك المقدس الوثني القديم أو الحديث منه؛ لذلك فإننا سوف لن نسلك هنا ذلك المسلك التقليدي وسنكتفي بإيراد تعريفين أو مفهومين للدين من وجهة نظر فلسفية لأننا رأينا أنها أكثر تحديداً لذلك المقدس الوثني:

■ التعريف الأول لويليام جيمس؛ حيث يعرفه بأنّه: "... الطريقة التي تظهر بها ردود الأفعال هذه الأفعال منبثقة من سمو نفس متأثرة بسحر قوى أعظم من الإنسان..¹⁴

■ التعريف الثاني لجون ستيوارت مل؛ الذي يرى أن جوهر الدين هو الاتجاه القوي المتحمّس للعواطف والرغبات نحو هدف مثالي يعتبر أسمى وأشق من كل غرض أناني أو رغبة ذاتية...¹⁵

من خلال التعريفين يتوضّح لنا صوري، الذات المتعبدة، والمقدس أو الإله. الذات المتعبدة التي عبّر عنها جيمس "بالنفس المتأثرة بقوى أعظم"، والمقدس الذي عبّر عنه "مل" بالهدف المثالي، كما نلاحظ أن كلا التعريفين لم يتضمن بصورة واضحة غاية الدين أو العبادة، لذلك سنحاول الإجابة فيما يأتي عن غاية التقديس وصورته عند المغاربة القدماء.

ولعل أهم ما يميز المعتقدات الوثنية في المغرب القديم هي أنها كانت انعكاسا لنظرة الناس للكون والحياة بمختلف مكوناتها المادية والمعنوية، وربما من الصعب على إنسان ذلك الزمن أن ينظر للكون والحياة بشمولية. وأن يعثر على تفسير لمسببات الظواهر الطبيعية في هذا الكون؛¹⁶ لذلك نرى أن المقدس عند المغاربة القدماء تبلور في عدد كبير من الأشياء المختلفة¹⁷ أهمها:

✓ القوى الطبيعية من حيث كونها مساكن القوى الخفية: كان المغاربة القدامى يعتقدون بظهور قوى خارقة للطبيعة في المناطق المحيطة بالريف؛ حيث تُعبد جَنّيات الأنهار والجبال.. وكان يعتقد اعتقادا قويا بأن القوى الإلهية يمكنها أن تحلّ في الأشياء الشائعة والعامة.¹⁸

لقد كانت هذه هي السّمة السائدة للسكان الأصليين في إفريقيا الشمالية وهي الاعتقاد العام بأن العالم تسكنه الأرواح الشريرة والطيبة؛ التي يمكن أن تتخذ أشكالا مختلفة، وتسكن مؤقتا البيوت المظلمة والكهوف، والغيران والمياه والرياح والأشجار والأحجار والحيوانات والكائنات البشرية.. وهذا النوع قديم وواسع الانتشار في

الانسانيات البدائية، وعلم الأديان يسميها "الاعتقاد"؛ أي أن لكل شيء نفساً أو روحاً
 "Animisme"¹⁹

كانت هذه الأرواح قوى غامضة غير مشخصة، تتحكم في ظواهر الطبيعة، وتمسك بزمام الإنسان تمنحه إن رضيت وتمنعه إن غضبت وتحميه إن استعطفها، وتتخلى عنه إن أمسك على استرضائها، وجعل الإنسان لتلك القوى آلهة، ورتبها حسب أهميتها وعلاقتها ببعضها وجعل كبيرها الماسك بزمام الأمور في السماء. إنه الإله الأعظم؛ الذي يستحيل الوجود دونه، وتتعذر الحياة على الأرض إذا امتنع عن رعايتها.²⁰ فالفضاء الرّحب بنجومه السّاطعة، وكواكبه العظيمة ملك لهذا الإله، يملكه كما يملك الإنسان الذي يعبد، إنه يبارك أعمال الناس النافعة كلما أكثروا من تقديم الأضاحي والقرايين، إنه رب الدنيا، ومالك مصير الانسان بعد الموت.²¹

ويبدو أن طبيعة الإله وصفاته كانت في نظر البربر أقل أهمية بكثير من أهمية الطقوس والشعائر ولهذا بذلوا جهدهم في أداء هذه الطقوس والشعائر - ومنها انتظروا كل شيء - لذلك لم يعبدوا آلهة كبرى ممثلة في صورة بشرية أو شبه بشرية، فهم يميلون إلى المقدس المكرس للعبادة، أكثر من ميلهم للآلهة²²

وبمجيء القرطاجيين ظفر البربر منهم بأفكار أقل غموض فيما يتعلق بتصور الإله من الأفكار التي كانت لديهم عنه، وذلك نتيجة مشاركتهم لهؤلاء في عبادتهم للآلهة الكبرى -آنذاك- ذوات الشخصية المتميزة. لقد استطاعوا بذلك أن يرتفعوا إلى فكرة الألوهية محددة بعض التحديد في طبيعتها وصفتها. بعد أن كانوا لا يتصورون في إلههم القديم (الكبش آمون؛ حامي القطعان) غير قوة غامضة سحرية²³، وكان هذا التصور كافياً للإنسان عن معبوده؛ كي يقدّم القرايين الغالية بسخاء؛ حتى لو كانت فلذة كبده طمعاً في رضى المعبود.²⁴

كما ولّد تنوع مناطق الشمال الإفريقي وانعزالها عن بعضها البعض نزعة انفصالية، كانت نتيجة نوع من الإنعزالية الدينية التي تتميز بالإيمان بالقوى القبلية أو المحلية أو الاقليمية. وانجّر عن هذا احتفاظ كل مدينة بإله خاص بها تعبدّه وتقدّم له القرابين، وكانت هذه الخاصية عامة في حوض البحر المتوسط.²⁵

مما تقدم نلاحظ أن المقدس مرتبط بالأشياء التي تسكنها الأرواح الخفية. ومن الملاحظ كذلك أن هذه الأرواح الخفية سكنت قوى الطبيعة من رياح ومياه وأشجار وحيوانات... لذلك سنحاول تتبع المعتقدات الدينية التي مارسها البربر والمغاربة القدامى.

ثالثاً- صورة المقدّس عند المغاربة القدامى

رأينا في المطلب السابق كيف تصوّر هؤلاء المغاربة المقدس؛ هذا المقدس الذي كان عبارة عن قوى خفية خارقة للطبيعة تسكن أشياء مختلفة. لهذا كانت هذه الأشياء عندهم خليفة بالعبادة. وسنتناول فيما يأتي هذه الأشياء التي اتخذ منها المغاربة القدماء آلهة وجعلوها محلّ عبادة.

1. آلهة حيوانية:

في هذا الصدد تساءل "جزال" (GZEL) عن وجود الطوطمية في عصور ما قبل التاريخ في شمال إفريقيا؟ وحاول الإجابة عن هذا التساؤل "ل. جولو" (L.joleaud) سنة 1935. والمشكلة لم تحل، والنقوش الصخرية في الشمال الإفريقي لا تعين كثيراً في حل المسألة الطوطمية؛ ولو قارنا بين ما يقوله المؤلفون الأقدمون وما تعرّى عنه البقايا الحديثة في الأعراق والتحريمات... الخاصة ببعض الحيوانات (الكبش الجاموس الفيل التمساح...) من ناحية، وما نعرفه عن هذه الحيوانات نفسها في معتقدات وتقاليد المصريين؛ فإننا نجد كثيراً من النقوش الصخرية في شمال إفريقيا أقدر على وصف دور بعض الحيوانات بوصفها حوامل لطقوس الاستسقاء والخصب في العصور قبل التاريخية منها على إثبات وجود عبادة طوطمية.²⁶

وفيما يتعلق بعصر ما قبل التاريخ لا تقدم لنا الوثائق في هذا الموضوع نتائج بارزة، لقد ذكرنا - أعلاه - ما تدل عليه الرسومات الصخرية في الشمال الأفريقي - وخصوصا في الصحراء الكبرى فيما يتعلق بالطوطمية - إن الحيوانات المرسومة يمكن أن تشهد إلى حد ما على بعض الطقوس السحرية، أو شعائر العبادة أكثر ما يمكن أن نستنتج من خلالها طقوس عبادات مختلفة أهمها:

✓ عبادة الكباش:

لقد كانت عبادة الكباش واسعة الانتشار في بلاد المغرب القديم؛ حيث عثر على رسوم صخرية تمثل هذه الآلهة على امتداد الأطلس الصحراوي والحقار والتاسيلي؛ وقد صُوِّرت هذه الكباش وهي حامله فوق رؤوسها رموزا بيضوية الشكل؛ والتي في بعض الأحيان يوجد أمامها رجل يتميز بوجود خصلة شعر جانبية في رأسه ويرتدي قميصا وحزاما عريضا. وهناك وجود شبه بين هذه الكباش، والكباش المصري في العهد الفرعوني؛ والذي يحمل على رأسه رمز الشمس. ويمثل الإله آمون رع في العهد المصري القديم،²⁷ وقد أكتشف كبش آخر في صحراء تمنطيط بغير قرص،²⁸ ومن هنا طُرحت حول الكباش الأول مشكلة الاتصال بمصر. وأثيرت عدة تساؤلات حول أصل هذا الإله هل هي أصلية في بلاد المغرب؟ أم وافدة إليه؟

يرى رشيد الناضوري أن خصلة الشعر التي تميز بها الرجل السالف الذكر؛ وقد ذكرتها النصوص المصرية كعلامة تميز بعض الكهنة المصريين بالإضافة إلى رجل آخر ترك ذقنه بشكل يذكّر الباحث بطريقة رسم الإله أوزيريس المصري. وقد عثر على الرسوم جنوب طرابلس، وتؤرخ هذه الرسومات بالفترة الممتدة من حوالي منتصف الألف الثالثة، حتى حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد. ومن الواضح أن هذه الفترة تقابل فترات هامة في العصر التاريخي في مصر، مما يؤكد أن هذه الرسومات قد تعبر عن أفكار حضارية متأثرة بالحضارة المصرية القديمة. ويعتبر ذلك استمرارا للصلات بين المغرب ومصر.²⁹

وهناك رأي آخر يميل إلى الاعتماد بأن الكبش هو عبارة عن إله محلي؛ ويذهب إلى أن الجفاف الذي بدأ ينتاب الصحراء تدريجياً كان وراء انتقال عبادة الكبش من المغرب إلى حوض وادي النيل مع الشعوب المهاجرة إلى هذه المنطقة. وهذا ما يحاول "ليون دي بيلا" (leon du pella) تأكيده - أي أن آمون انتقل من المغرب إلى مصر - وهذا ما يتطابق مع المعطيات الأثرية حيث عثر على صلاية من فجر التاريخ (3500-3200 ق.م) تدل على أن المصريين يجلبون من بلاد الليبيين ثيرانا وكباشا وشجيرات زيتون³⁰ كما يخبرنا "اثناسيوس" (ATHNASIOS)؛ بأن الكبش كان مقدساً عند الليبيين تحت اسم آمون³¹.

بينما يرى "جزال" أنه لا شيء يدفعنا إلى تشبيه الكبش الصحراوي بالإله آمون طيبة، ولا على جعله منحدرًا منه ولا العكس. كما يذكر "جزال" بأنه يكاد يكون لكل قبيلة ليبية كبشها المقدس الخاص بها. والنظر إليه لم يكن في متناول الجميع؛ بل كان له كهنة يحيطونه بأساطير خيالية تضفي عليه هالة من القداسة، وتجعله مهاباً من قبل الجميع.³² وقد استمرت عبادة الكبش حتى في بلاد المغرب إلى زمن "البكري"؛ الذي يذكر أن: "قبيلة عاشت في بلاد المغرب الأقصى كانت تعبد الكبش خلال القرن العاشر الميلادي".³³

✓ عبادة الثيران:

هناك بعض الرسوم التي وجدت على واجهات الصخور والنصب والتواييت وكذا الدمى الحجرية (les idoles) أشارت هي الأخرى إلى عبادة العجل؛ ووجدت منتشرة في أرجاء كثيرة من المنطقة الليبية. وهناك عدة رسومات لثيران. تحمل على رؤوسها رمز الشمس، تماثل تلك التي وجدت على رؤوس الكباش المقدسة.³⁴ ويخبرنا

"كوريبوس" (CORIPUS) كيف أن "اللجوانتينيين" (LOGUANTAN) أو لواتة في السرت يطلقون الثور الذي يمثل معبودهم "جورزيل" (Gurzel) أي آمون على أعدائهم³⁵ كما عبد المغاربة البقرة التي أُعتبرت -بحسب رواية هيرودوت- مقدسة؛ حتى أن السكان كانوا لا يقتاتون منها وكانت تعبد من طرف النساء.³⁶

✓ عبادة الأسود:

التي نعثر عليها في العديد من نصب الأضرحة الإفريقية منها نصب المكثّر (ELMAKTAR)؛ حيث نجد العديد من الأسود تحيط بمعبد "أبولون"، كما عثر عليها في العديد من المواقع الأخرى مثل تيبازة وسكيكدة وتونس؛ حيث اكتشف "أندري ميرلان" تماثيل العديد من الآلهة برؤوس لبوة وآلهة وأقنعة على شكل أسد، وقد زينت كل من المقبرة الملكية في قبور "روميا"؛ قرب شرشال، والضريح الفخم في "دوجة" (Dougga) تماثيل أسود.³⁷

✓ عبادة الأسماك:

تجدر الإشارة إلى أن عبادة الأسماك كانت تتميز بها المنطقة التي هي الآن تونس؛ وهي تفسّر إلى حدٍّ ما وفرة الصّور الخاصة بالأسماك التي عثر عليها على الفسيفساء التونسية. والسّمك هو رمز الذكورة، الذي يقي من العين الشريرة، ويظهر عضو التناسل على شكل سمكة، قاذفا بلقاحه بين عضوي تناسل أنثيين على فسيفساء من سوسة³⁸، وربما كان لهذا التقديس ذكره؛ في كون السّمك كثير البيض؛ وهو رمز للخصب عند المغاربة. لكن لا شيء يسمح لنا أن نفترض أن عبادة الأسماك المقدسة، واسعة الانتشار مثل عبادة الانقليس (ثعابين البحر) والسلحفاة في الينابيع. وإلى جانب السمك فإنّ عبادة المحار انتشرت انتشارا واسعا؛ كرمز للجنس المؤنث وهي تخدم الأحياء بما فيها من جمال وتريح الأموات في قبورهم.³⁹

هذه ليست كل الحيوانات التي عبدها المغاربة القدماء، فهناك عبادة التنين "دراكون"؛ الذي ظلّت عبادته في تيبازة حتى عهد الإمبراطور قسطنطينيوس، وكذلك السلحفاة والأفعى التي يُعتقد بفعاليتها أمام قوى الشر⁴⁰ بالإضافة إلى بعض الحيوانات الأخرى لكونها حوامل لبعض القوى الخارقة.

2. آلهة طبيعية:

عبد اللوبيون مظاهر الطبيعة المختلفة؛ من سُحب وعواصف وأشجار وغيوم واعتبروها مواطن الأرواح وتقدم لنا الرسوم الصخرية نموذجاً أولياً لعادات دينية تدل على هذا.⁴¹

✓ عبادة الأشجار:

من المهم الإشارة إلى أنها لم تكن مجهولة؛ فقد طالب مجمع ديني إفريقي في القرن الرابع ميلادي الإمبراطور أن يبطل عبادة الأوثان، حتى عبادة الأشجار والغابات...⁴²

✓ عبادة مصادر المياه:

كانت مصادر المياه العذبة -خاصة العيون والآبار- تعبد أيضاً؛ ويخبرنا القديس أوغسطين (354-430م)، أنه في يوم 24 أغسطس من كل عام، كان النوميديون يمارسون طقوساً تقضي بالغطس في البحر. كما شاعت عبادة الأمطار ومحاوله استدراجها؛ باعتبارها ضرورة لحياتهم كما يفعل الإنسان المسلم في صلاة الاستسقاء.⁴³

✓ عبادة الصخور والأحجار:

على الرغم من افتقارنا إلى معلومات عن عقائد البربر المتعلقة بالأحجار، وعن العبادات المتصلة بها، فإن ثمة ميلاً إلى الافتراض مع "جزال"، أن الفينيقيين ليسوا هم الذين أدخلوا عبادة الأحجار التي انتشرت في قرطاجة بل أسهموا في نشرها في إفريقيا.⁴⁴ ويبدو أن البربر منذ القدم عبدوا بعض الأحجار التي تميزت بمنشئها أو شكلها أو بالاعتقادات المتصلة بها. فإن هذا النوع وُجد منذ القديم في إفريقيا الشمالية بوصفها

مسكننا لبعض الأرواح، وهذا يذكرنا بعبادة الأحجار المقدسة (bétyles)؛ التي تحدّث عنها الكتّاب اليونان والرومان وأشاروا إلى وجودها في إفريقيا الشمالية، ويبدو أن كلمة "bétyles" التي جاءتنا من اليونانية أصلها سامي ومعناها "بيت اله".⁴⁵

كما كانت الصخور المستديرة أو المدببة مثل حصي الجرانيت؛ الذي يرمز للوجه الإنساني أو الأعضاء التناسلية من الأشياء التي تعبد. ويشير بومبونوس ميلّا (Pomponius Mela)، وبيلينيوس إلى صخرة برقة كان محرماً لمسها خوفاً من هبوب الرّياح الجنوبية.⁴⁶

✓ عبادة الكهوف:

لقد كانت الكهوف والمغارات من المقدسات عند قدماء المغاربة؛ لأنها كانت المأوى، حيث رسموا على جوانبها العميقة المظلمة مستعينين على ذلك بإشعال النيران. وفي كثير من الأحيان كانت الأماكن المتوغلة في الكهوف، التي تحمل رسوما حيوانية و آدمية حبسا على الكهنة، الذين يسهرون على تلك الرسوم، وتقديم الولاء لها، بدل عامة البشر.

كما استعملت هذه الكهوف والمغاور عند المغاربة القدماء للدفن أيضا؛ فقد ذكر هيرودوت أنه من عادة المغاربة النوم فوق قبور موتاهم الذين كانت لهم مكانة اجتماعية محترمة وهم أحياء، مثل: رؤساء القبائل والكهنة... وكل حلم يتراءى لهم أثناء نومهم على تلك القبور يأخذونه مأخذ الوحي، ويعملون به أو يحتكمون إليه.⁴⁷

✓ آلهة كونية:

إذا أخذنا بما قاله هيرودوت ومن بعده ابن خلدون، قلنا أن البربر كانوا مجوسا يعبدون الشمس والقمر؛ اللتين ظلت رسوماتهما تتصدّران التّصّب الجنائزية في مواقعهم الأثرية حتى الفترة الرومانية، مما يدل على عمق تأثيرها في صفوف الأهالي، لكننا لا

نستطيع أن نقرر كيف وعلى أي شكل عبدوها؟ هل في صورة آلهة؟ أم في صورة طقوس سحرية؟⁴⁸

وطبقا لما قاله هيرودوت؛ فإن المغاربة لا يقدمون القرابين إلا للشمس والقمر... ويحكي "تثرون" أن "ماسينيسا" قدّم الشكر للشمس وغيرها من آلهة السماء، وقد استمرت عبادة الشمس في مدن إفريقيا الرومانية مثل "المكثّر" (ELMAKTAR) و"دوجة" (Dougga) و"سيطة" (Sfitula).⁴⁹

كما كان المغاربة يأتون إلى أبكار القطيع، يقصون لها نصيبا من أحد أذنيها، ثم يرمونه بين كتفي القربان، وتلو رقبتة، ثم يُضخّى به، بعد ذلك للشمس طمعا منهم في دفع الأرواح الشريرة، وتكاثر أعداد القطيع.⁵⁰

3. آلهة بشرية:

✓ عبادة الموتى:

أُعتبرت أجزاء من جسم الإنسان وعاءاً للقوى الخارقة؛ فكان الرجل يحاط بعد موته بالعناية والاهتمام، والعامل العقائدي هو أظهر ما يجده الباحث الأثري لدى البربر الليبيين، كان الجسد عموما يدفن على جانبه، ثم تتم إمالته، أو ضمّه، وقبل أن يتم هذا فإنه غالبا ما يُنتزع منه اللحم عن العظم، وعادة تغطّي العظام واللحم بتراب أحمر يعتقد أنّه يعيد الحياة للجثة. كما عرف المغاربة عادة حرق الجثث كذلك.⁵¹

ويذهب البعض من بينهم "رشيد الناظوري" إلى القول أن قبور الدولن، هي مراكز للعبادة. ويرى "بورقينا" أن تنوع السياج المحيط بالقبور؛ يرجع إلى الاعتقادات الدينية، وهكذا يجب أن نشير إلى تواجد مجموعة من المنهير (عبارة عن أنصاب حجرية) التي عشر "روبو" على منهير منها، كما عشر "مارتان" على واحدة أخرى، وظاهر المنهير ليست مقتصرة على المقابر المغاربية فحسب، بل موجودة بالمقابر الميغالييتية ببريطانيا وأماكن أخرى.⁵²

إن الاهتمام بالموتى عن طريق الإهتمام بالهدايا الجنائزية. ووضع الأواني بالقرب من الجماجم ووضع التماثيل وتزويد الميت بالطعام؛ يدل على الاعتقاد الراسخ بعالم ما بعد الموت، ولقد كان المصريون يعتقدون أن روح الميت في العالم الآخر تحتاج ما يحتاج إليه الأحياء من طعام وشراب، ومما يؤكد ذلك الآنية التي بها آثار الطعام؛ التي توجد الآن بمتحف البارود. التي تم العثور عليها بمتاحف الركنية⁵³.

كما كان المغاربة يقدمون الأضاحي على شرف الأموات فقد تُقدّم ذبائح حيوانية؛ كجواد مثلاً وأحياناً كانت ترتكب جريمة قتل طقوسي، كي يتسنى للميت أن يحتفظ بخادم مخلص ويلحق بالميت في قبره أفراد أسرته، ومن بين هؤلاء في عديد من الحالات زوجته؛ وبخاصة في منطقة وهران ومراكش⁵⁴، وكان تقديم هذه الأضاحي أمام مقابر الموتى في منطقة مخصصة لذلك تواجه الشمس المشرقة⁵⁵.

✓ عبادة الملوك والأمراء:

لقد انتشرت عبادة الأمراء والملوك عند النوميديين والموريطانيين بشكل ملحوظ؛ ومن الضروري البحث عن أصول هذه العبادة في أقدم العبادات المحلية⁵⁶ ولا يستبعد أن تكون فكرة بناء الأضرحة الضخمة والمعابد، التي كانت قد شيدت للملوك والأمراء النوميديين فيما بعد قد انطلقت من تقديس هؤلاء الأمراء والملوك⁵⁷ من خلال ما تقدم نستنتج أنه كانت للمغاربة معتقداتهم الخاصة قبل مجيء القرطاجيين، ومن بعدهم الرومان؛ وقد تمثلت هذه المعتقدات في عبادات لآلهة مختلفة منها الحيوانية والكونية والبشرية.

المبحث الثاني: التأثير البوني في المعتقدات المغاربية القديمة

أولاً- التأثير الديني المتبادل بين القرطاجيين والبربر:

كان الدين يحتل مكاناً هاماً لدى القرطاجيين العامة منهم والخاصة، وكان متحكماً في كثير من مظاهر حياتهم، فكان شغلهم الشاغل وكل شيء سواه يعتبر تافهاً

وثانويا، وأكبر دليل على ذلك؛ تلك الأسماء التي كانوا يتخذونها، مثل: (معطا بنعل)؛ أي عطية بنعل، (عبد استمون)، (عبد ملقوط) أو (عملقار)، (حنبل) حنّ عليه بنعل، (باركبل)؛ أي باركه بنعل... ومن أسماء الإناث: (بنتبل) ابنة بنعل - (عريسة بنعل) - (خطيبة بنعل) - (أمة بنعل) - أي خادمة بنعل...⁵⁸

كما كانت المعاهدات تبرم تحت حماية الآلهة؛ فعندما تم إبرام المعاهدة بين حنبعل وفيليب المقدوني (سنة 215 ق.م)، أشهد آلهة قرطاجة وآلهة مقدونيا وآلهة اليونان، وجميع آلهة الحرب (Zeus.Hera.Apollo.Heracles...) وغيرهم... كما أشهد الأنهار والمياه والبحار...؛ وكل ذلك مكتوب ومنصوص عليه في المعاهدة التي أشرنا إليها.⁵⁹

وبمجيء هؤلاء القرطاجيين إلى إفريقيا وجدوا للمغاربة القدماء - كما رأينا في المبحث السابق - آلهة محلية وطقوس دينية. وربما مهّدت الاتصالات الأولى للفينيقيين بالسواحل الإغريقية أواخر الألف الثانية قبل الميلاد؛ لانتشار المعتقدات البونيقية شيئا فشيئا خلال الفترة القرطاجية⁶⁰، وهي المعتقدات التي انحصرت في بداية الأمر في المدن الساحلية ثم توسّعت بعد ذلك لتعم كامل بلاد المغرب القديم، ومن المعبودات التي تنسب إلى القرطاجيين، والتي كان لها صدى عميقا في نفوس البربر. نشير إلى إلهين هما تانيت بنبل وبعل حمون (Baal hammon)؛ وسرّ انتشار هذين المعبودين، هو أن البربر اعتبروهما تغييرات شكلية للمعبودات المحلية - فالكبش مثلا - والأسد والشمس والقمر والعجل قورزيل ظلّت تحتفظ بمكان الصّدارة، فحتى إذا تغيّرت الأسماء فالجوهر ظلّ واحدا⁶¹

وإذا كنّا لا نشك في أن المهاجرين الفينيقيين قد واصلوا عبادة آلهة فينيقية، وحافظوا لمدة طويلة على عاداتهم الدينية السابقة. فإننا لا نشك أيضا في أنهم سرعان ما تبنا آلهة محلية ويمكننا بالإعتماد على الألواح النذرية إعتبار تانيت، وبعل - حمون

(المعبودين الرئيسيين في قرطاج)، ولم يعثر على اسم تانيت ولا بعل - حمون في نقوش المدن الفينيقية؛ وهذا يدل على التأثير المحلي على أولئك المهاجرين⁶².

كما تظهر محاولة القرطاجيين التغلب على القوى الشريرة التي تهدد أمنهم باستخدام طريقة جديدة ترجع أصولها إلى إفريقيا الزنجية وهي صنع الأقنعة والمسوح الطينية التي تحمل أشكالاً شيطانية؛ يرتديها الإنسان أو يضعها في منزله أو مقبرته؛ كنوع من إخافة هذه القوى الشريرة، وبالتالي إبعادها عنه -تظهر- أن القرطاجين توصلوا إلى هذا التقليد الجديد نتيجة اتصالهم الحضاري البري والبحري مع البربر الذين نقلوها بدورهم عن إفريقيا الزنجية⁶³، ويتضح هذا التأثير -بالنسبة للطرفين- من خلال المعبودين الرئيسيين في قرطاج اللذين انتشرت عبادتهما في كامل المغرب القديم، حتى اختلط على الباحث التعرف على أصول هذين المعبودين، اللذين سنحاول فيما يأتي التعرف عليهما وعلى أصليهما:

● عبادة الإله بعل - حمون* (Baal hammon):

ربما كان نسبة إلى الإله "آمون" الذي كان يعبد في إفريقيا ومصر؛ الذي كان يشبه في الغالب بكبش أقرن، وهو آمون المقدس، وربما كان ذلك نسبة إلى واحة "آمون"؛ التي تعرف اليوم بواحة سيوة "Siwa"؛ قرب الحدود المصرية، وكان هذا الإله يحتل بلا منازع المكان الأول في البانتيون القرطاجي (أي هيكل الآلهة)، بعد تانيت بنبل؛ وأن اسمه يأتي بعد اسمها فوق الأحجار النذرية التي وجدت بقرطاج وأحيانا نجد اسم بعل - حمون وحده كما هو منقوش على الأحجار الموجودة بحدر الموت (سوسة) و"دوجة" (Dougga) و"مكتر" (MAKTAR) في الجهة الوسطى بصفة عامة⁶⁴.

وقد صُوِّرَ هذا الإله القرطاجي في عدة أشكال منها تصويره في شكل إله حي جالس على العرش وبجانبه أبو الهول وهو في المتيولوجية رأس إمراة وجسد أسد وجناحا نسر وعلى رأسه تاج أسطواني ذو تخويفات مستطيلة وهو يرتدي قميصا فضفاضاً مثل

الذي يلبسه الفينيقيون ويده اليمنى مبسوطة ومرفوعة في الهواء، ومن المحتمل أن هذا التمثال كان يمثل إله صياغة (Siagua)؛ لأنه وجد بمعبدتها وإله حدر موت (سوسة)؛ لأنه لا يبعد عن "Siagua" إلا قليلاً.⁶⁵

وصور هذا الإله أيضا في شكل إله أقرن كالكبش، وقد عُثر على كثير من هذه التماثيل، ويوجد أنموذجا منها في متحف لافيغري بقرطاج، وهذا يذكرنا بالكبش (أمون) المقدس؛ الذي كان يعبد الليبيون من قبل قدوم الفينيقيين، وهنا نجد الشبه الموجود بين الإله الإفريقي وإله القرطاجيين بعل - حمون،⁶⁶ ومنهم من اعتبره ذا صلة بالإله المصري أمون على أساس الشكوك التي دارت حول أصل (أمون) نفسه كما أوردناها في المبحث السابق، ويذهب شارل أندري جوليان إلى أن تشبيه اسم هذا الإله باسم الإله المصري أمون خطأ؛ بل يحسن أن نأول معنى الكلمة بأنه سيد الأنصاب (حاميم)⁶⁷

بينما يذهب حارث محمد الهادي إلى أن (أمون) و(بعل - حمون) هما إله واحد، وكل ما في الأمر، هو عملية مزج حدث بين المعبود الفينيقي "بعل" والمعبود "أمون" عند المغاربة قبل قدوم الفينيقيين بوقت طويل، وهذا ما فعله المصريون عندما مزجوا "رع" المعبود في ممفيس بـ "أمون" عندما انتقل مركز الحكم إلى طيبة فأصبح (أمون - رع)، وكذلك (زيوس - أمون) عند الإغريق في قورينة وبرة، و(جوبتر - أمون) عند الرومان في وقت لاحق⁶⁸ ويستند حارث فيما يذهب إليه على ما يلي:

○ يرى هنري باسييه (H. Passier) أن المعتقدات القرطاجية تبدوا أنها كانت متفتحة على التأثيرات الخارجية، كما أن الليبيين استعدادا لتقبل - ولو سطحيا - لما هو آت من الخارج وهذا كان في نظره كافياً لحدوث تبادل أو تداخل بين الشعبين في هذا الميدان وبالتالي إمكانية تبني القرطاجيين لألهة محلية.

○ إن أمون يرمز له بالكبش أو رأس كبش، أو بقربي كبش؛ وأن عبادة بعل - حمون كان لها أيضا صلة بالكبش؛ إذ عُثر في القبور القرطاجية على أثاث جنائزي

من ضمنها رؤوس كباش، وقرون كباش، بالإضافة إلى تماثيل عديدة تنسب إلى آمون.

○ عبد آمون عند المغاربة كإله شمس وكذلك بعل-حمون عند القرطاجيين، رغم أنه لم يكن محل عبادة فينيقية؛ بدليل عدم وجود إله بهذا الاسم في النقوش الفينيقية، في المقابل قد عثر "بيكار" في مدينة "مكتر" (MAKTAR) على ثلاث عبادات خاصة بعبادة الشمس فتساءل إن لم تكن هذه العبادات موجهة لعبادة واحدة، وهي عبادة الشمس عند المغاربة فعندها -في نظره- الفينيقيون باسم بعل-حمون.

كل هذه العوامل تجعلنا نميل إلى الأخذ بأصول بعل-حمون المغاربة، وأن كل ما حدث كما رأينا، هو عملية مزج بين كلمة "بعل" الفينيقية والتي تعني "السيد" وكلمة "آمون"؛ الذي انتشرت عبادته في بلاد المغرب منذ العصر الحجر الحديث على الأقل⁶⁹ عبادة الإلهة تانيت بنتبعل: تانيت بنتبعل المواجهة لبعل؛ وهي تانيت الإفريقية وتعتبر تانيت بنتبعل مماثلة لأسطراطه؛ وهي إلهة القمر عند الفينيقيين بمدينة صور، وهي أيضا في مقام الإلهة حيراء Héra زوجة الإله "زاس" (Zeus) -عند اليونان- وكل من هاتين الإلهتين هي إلهة نجمية. ويمكن أن تكون شيئا واحدا.⁷⁰

كانت تانيت بنتبعل إلهة الإنتاج والخصب والبذر والحصاد والتناسل... عند القرطاجيين؛ كان يُستغاث بها عند الولادة. ويرمز لها بسيدة ترضع طفلها وأيضا بمثلث أو شبه منحرف، قد علاه خط أفقي معقوف الطرفين في بعض الأحيان وأسطوانة منحرفة الشكل أحيانا، نجد تماثيل تانيت في متحف باردو، وكثيرا ما كانت تحمل اسم ربة أو ملكة فوق الأنصاب، والأحجار النذرية، إلى جانب بعل-حمون كإلهة مساعدة له. وهنا أتى تركيب بعض أسماء الأعلام؛ مثل: عبد ربه، أختملك، اخيملكة، أمة ملكة؛ أي خادمة ملكة...⁷¹

عبد القرطاجيون الإلهة تانيت، وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه الإلهة ولكن عدم الإشارة إليها في رسوم رأس شجرة وصور وغيرها، يؤكد أنها غير فينيقية الأصل، كما أن عبادة البربر لها، يزيد في كونها بربرية الأصل⁷².

كما نجد في نصوص معبد الحضرة ما يدعم فكرة محلية أصول هذه الإلهة، وكذلك التشابه في اللفظ بين "نيت"؛ التي عبدها المصريون باسم "نيت تيهو" أي الليبية؛ أي "نيت الليبية"، وتانيت القرطاجية إذ أننا لو حذفنا "التاء"؛ الدالة على التأنيث- في الأمر بغية- من تانيت لحصلنا على "نيت" التي عبدها المصريون.⁷³

وإذا جزمنا بمحلية أصول "تانيت" المغربية. هل بإمكاننا تفسير اهتمام البربر بإلهة أنثى بدلا من إله ذكر؟ وللإجابة عن هذا التساؤل من الممكن في هذا الصدد الرجوع إلى بعض المجتمعات القبلية التي كانت تعطي أولوية خاصة للمرأة في كيانها الاجتماعي مما يجعلها تصل إلى اتخاذها رمز للقوى الكامنة في ظاهرة الإخصاب.⁷⁴

ثانيا- المعابد وأداء الطقوس الدينية:

● المعابد:

اتخذ البربر قبل مجيء القرطاجيين قمم الجبال والكهوف والمغاور والأماكن العالية بالقرب من العيون والأشجار المقدسة أماكن للعبادة دون أن يحتاجوا إلى تماثيل أو كهنة... كانت هذه المعابد الأولى تمثل مرحلة انتقالية بينها وبين المعابد التي أنجزت في عهد الملوك المغاربة؛ مثل معبد ماسنسان الذي بني في "دوجة" (Dougga) في عهد مكوس.⁷⁵

ويُعد معبد شمتو النموذج الوحيد للفترة النوميدية؛ قام ببنائه الملك مكوس على عشرة مراحل من المدينة الملكية (بولا- ريجينا) على أعلى قمة جبل المرمر.⁷⁶ أما فيما يخص المعابد القرطاجية فقد أُلقت الحفريات الحديثة الأضواء بعضها، ونعرف اليوم معرفة تامة معبدتين أحدهما في قرطاج والثاني في سوسة، يوجد معبد قرطاج

على ساحل صلامبو، كان في أول الأمر بناية متواضعة مسيّجة. تذكر جدرانها القصيرة بمثيلاتها في رأس "شمرة" (Shmorra)، وبإستثناء معبدي سوسة وقرطاج كانت المعابد القرطاجية في أماكن مرتفعة لا على الشواطئ كما هو بالنسبة لمعبد سوسة وقرطاج، وليست جميع المعابد متكونة من مساحة مسيّجة⁷⁷

● التضحية:

هي وسيلة اتصال بالإله وعربون إخلاص المتعبد وضمان لرضا المعبود من أجل أن يحفظ مصالح المتعبد ويرعى سلامته في الدنيا، ويجعل هذا المفهوم التضحية عطاءً مطلقاً عطاء الممتلكات والأنفس، وكل ما يرضي المعبود سواء من الأرواح البشرية أو الحيوانية بل التضحية بالنفس البشرية هي تزكية لها لأن ذلك يلحقها بعالم الآلهة المفضل، وهنا تتجلى قوة الإيمان التي كان يتأثر بها الوثني بمعبوده وقيّمته الثقافية في إرضاء إلهه⁷⁸

لقد كانت هذه التضحيات البشرية شعائراً معتادة في المجتمعات الوثنية، بمجرات كثيرة من حوض المتوسط منها البيلوبونيز (شبه جزيرة المور ببلاد اليونان) وفي روما التي تواصل العمل بها إلى القرن الأول قبل الميلاد كما عرفت في غالة بكثرة أثناء حملة قيصر عليها؛ لكنها كانت أكثر انتشاراً عند العبرانيين؛ الذين بالغوا في تقديم الضحايا البشرية ابتغاء مرضات الإله⁷⁹، وكانت الأضحيات البشرية عملاً تستنكره المشاعر الإنسانية ومن ثم أفلعت عن ممارسته شعوب الشرق الفينيقي في حين تواصلت هذه الشعيرة المؤلمة في المغرب (القرطاجي) وتشير الأخبار أن ملك الفرس "دارا" دعا القرطاجيين للإمتناع عن هذه العادة التي تحط من شرفهم كما قال⁸⁰.

غير أن تلك الشعيرة كانت فردية إرادية لا يرغم على آدائها أحد بينما أصبحت عند القرطاجيين شعيرة رسمية ترعاها الدولة؛ وتقيم لها الاحتفالات الدينية في السنة، تقع في تواريخ معلومة وهو ما تسمح به بعض النصوص والنقوش، وكان يختار لها

أفضل أبناء الأسر الوجيهة في المدينة؛ حيث كان يتم تقديم طفلين ذكرين على الأقل للإله بل - مون وكان ذلك عن طريق القرعة⁸¹.

كما قدم القرطاجيون الأضاحي أثناء القيام بالولائم المأتمية؛ كما توحى بذلك النصب القرطاجية، وهذه الأضاحي لم تكن على شرف الميت، بل على شرف الإله الذي عليه حماية الميت الممثل على نصب؛ اليد مرفوعة؛ أي في وضعية الترجي والتعبد⁸²

ويبدو أن الأضحيات البشرية بدأت تعوضها الأضحيات الحيوانية في زمن نجهل بدايته حتى أمكن للمعتقدين أن لا يقدموا طفلهم البكر قربانا لبيع الأمون ويقدمون بدله خروفا. وهي العملية المعروفة ب "مولخومور"؛ أي الأضحية. وهناك العديد من النقوش العائدة إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، تذكر الحيوانات المضحى بها في معابد قرطاجة. وهي الثيران والعجول والكباش ونعاج وتيوس وخيول وديكة ... كما كانت تقدم بين يدي الآلهة الهدايا من الأطعمة وبواكير الفواكه كالزمان والعنب والزيت والحليب والخمور والعطور والبخور والحلويات⁸³.

● الكهنوت:

للسهر على العبادات والشعائر الدينية يجب أن تتوفر هيئة كهنوتية. وإذا كان هيرودوت لم يقل لنا شيئا عنها فإننا نجد في معبد الحفرة ما يوحي بانتظام هذه الأيام فكان هناك كبير الكهنة، والكاهنة كبيرة الكاهنات كانوا كلهم تحت نفوذ خبر أعظم يدعى "رب كهونيم" وما تجدر الإشارة إليه أن الكهنة في قرطاج لم يكونوا يتمتعون بأي نفوذ سياسي خلافا لما كان معمولاً به في روما. ولم يُفرض التبتل على النساء الكاهنات مثلما كان ذلك مفروضاً ب "روما"، وكذلك لم تُفرض العزوبة على الكهنة من الرجال، كما كان الكهنة في أعلى طبقات المجتمع فقد كانوا يمثلون الأرستقراطية، وكانت الكهانة وراثية على الأقل بالنسبة للحبر الأكبر⁸⁴.

وبمناسبة إقامة الحفلات والطقوس الدينية كان الكهنة يلبسون زياً خاصاً وهو عبارة عن ثياب أرجوانية قلاتس وجباب من الكتان. أردية طويلة الذيل يزينها في الوسط شقة أرجوانية وعصيبات وكانت مهمة هؤلاء الكهنة هي تقديم الأضاحي للآلهة.⁸⁵

● العرّافة:

كان القرطاجيون مولعون بالتطُّع إلى معرفة المستقبل يقول المؤرخون أن معبد "سالستيس" بقرطاج (التي كانت شيئاً واحداً وتانيت)؛ كان به متكهنات يكشفن عن الغيب، ويتنبأن بالمستقبل ويهتفن بذلك.⁸⁶

وكان هؤلاء العرّافون يعتبرون عند القرطاجيين من الشخصيات الرسمية؛ وكانوا يرافقون الجيش في حروبه، وكان القواد يستشيرونهم قبل الإقدام على أمر خطير هام ويأخذون برأيهم ويتبعونه حتى قيل أن "عملقار" الماقوني، لم يأمر بالهجوم على "سرقوسة" إلا بعد ما أكّد له العرّافون بالنّصر، لكن لم يُفده ذلك شيئاً؛ لأنه انْهزم.⁸⁷

وقيل أنّ الملك حنون إستصحب في رحلته المشهورة جماعة من العرّافين وأنّه عمل بإشارتهم؛ ارتحل بمن معه عن إحدى الجزر؛ التي كانوا قد نزلوا بها، إذ رأوا في الليل ثيراناً تتحرك وسمعوا الطبول والأصوات والمزامير وضجيجا كبيراً... الشيء الذي من شأنه أن يجعلهم يتشاءمون ويخافون سوء العاقبة ولا يتفاءلون خيراً.⁸⁸

خاتمة:

في ختام بحثنا هذا نحوصل نتائج دراسة أصول ومفهوم المقدس عند المغاربة القدامى في مايلي:

- تنوع المقدس وتأثره بالبيئة: تشكلت المعتقدات الدينية للوبيين (قدماء المغاربة) تحت تأثير العوامل الجغرافية والطبيعية، مثل الجبال والأنهار والصحاري، مما جعل المقدس لديهم مرتبطاً بقوى الطبيعة والأرواح الخفية.

- التأثيرات الحضارية: تأثرت المعتقدات اللوبية بالحضارات المجاورة (الفينيقيون، القرطاجيون، الرومان، المصريون)، مما أدى إلى تطور مفهوم المقدس ودمج عناصر جديدة مثل عبادة "بعل حمون" و"تانيت".
- الرموز والطقوس: تميزت العبادات بالتركيز على رموز حيوانية (الكبش، الثور، الأسد) وكونية (الشمس، القمر)، بالإضافة إلى طقوس التضحية والكهانة، التي تعكس سعي الإنسان للتواصل مع القوى المقدسة.
- الأساطير والروحانيات: اعتقد المغاربة القدماء بوجود أرواح تسكن الأشياء الطبيعية (الأشجار، الصخور، الكهوف)، وهو ما يعكس فلسفة "الأنيميزم" (الإيمان بوجود أرواح في كل شيء).
- التطور التاريخي: مر المقدس بمراحل تطورية من العصر الحجري إلى العصور التاريخية، حيث تحول من عبادة محلية بسيطة إلى أنظمة دينية أكثر تعقيداً تحت تأثير القرطاجيين والرومان.
- الهوية الثقافية: كشفت الدراسة عن دور اللوبيين في تشكيل الهوية الدينية لشمال إفريقيا، مع الحفاظ على عناصر أصيلة رغم التأثيرات الخارجية.
- أهمية التراث: يُعد هذا البحث خطوة لفهم أعمق للتراث الديني المغربي، مما يعزز الوعي التاريخي والثقافي، ويسلط الضوء على ضرورة الحفاظ على هذا الإرث.
- دعوة لمزيد من البحث: بسبب ندرة المصادر المباشرة، تبقى هناك حاجة لمزيد من الدراسات الأثرية والمقارنة لفك غموض بعض الجوانب، مثل اللغة اللبية القديمة ودلالات النقوش الصخرية.
- يمثل المقدس عند المغاربة القدماء نموذجاً فريداً للتفاعل بين الإنسان والطبيعة والثقافات المجاورة، وهو تراث ثري يستحق المزيد من الاستكشاف والتقدير.

- ² جمال مختار وآخرون، تاريخ إفريقيا العام، مج "حضارات إفريقيا القديمة"، تر: أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون، مر: عبد اللطيف أحمد علي، اليونسكو، 1985، ص 445.
- ³ محمد الصغير غانم، "بعض من ملامح الفكر الديني الوثني في بلاد المغرب القديم"، مجلة الحوار الفكري، ع2، ديسمبر 2001، جمعة قسنطنطة، ص 59.
- ⁴ رمضان تسعديت، الإصلاحات السيخرية في بلاد المغرب القديم (199-235م)، جامعة الجزائر، جوان 1990، ص 95.
- ⁵ محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 257-264.
- ⁶ جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 445.
- ⁷ محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص 257.
- ⁸ رشيد الناضوري، المغرب في العصور القديمة. أسسها التاريخية والحضارية والسياسية، ج2، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 69.
- ⁹ رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 105.
- ¹⁰ نفسه، ص 119-121.
- ¹¹ نفسه، ص 124-139.
- ¹² رمضان تسعديت، المرجع السابق، ص 96.
- ¹³ حول هذه الفكرة؛ ينظر: دايفيد سوقي، جغرافية الأديان. تر: أحمد غسان سباتو، ط1، دار قتيبة، 1990.
- ¹⁴ محمد كمال جعفر، الإنسان والدين دراسة ومقارنة، ط1، دار الثقافة الدوحة، 1985، ص 17.
- ¹⁵ نفسه، ص 16.
- ¹⁶ محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص 259.
- ¹⁷ جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- ¹⁸ نفسه.
- ¹⁹ ألفريد بل، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا من الفتح العربي إلى يومنا هذا. تر: عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 60.
- ²⁰ محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص 259.
- ²¹ نفسه.
- ²² ألفريد بل، المرجع السابق، ص 446-450.
- ²³ نفسه، ص 68.
- ²⁴ محمد البشير شنيقي، المرجع السابق، ص 260.
- ²⁵ دايفيد سوقي، جغرافية الأديان. تر: أحمد غسان سباتو، ط1، دار قتيبة، 1990، ص 14.
- ²⁶ ألفريد بل، المرجع السابق، ص 55.
- ²⁷ رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 139.
- ²⁸ محمد الهادي حارش، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة، 1993، ص 13.
- ²⁹ رشيد الناضوري، المغرب في العصور القديمة. أسسها التاريخية والحضارية والسياسية، ج2، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 139-144.

- 30 محمد الهادي حارش، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة، 1993، ص 14.
- 31 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- 32 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 63. محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 19.
- 33 مها عيساوي، النقوش اللوية في شمال إفريقيا. دراسة تاريخية لغوية، رسالة ماجستير، إشراف محمد الصغير غانم، 2001-2001، ص 24.
- 34 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 64.
- 35 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- 36 مها عيساوي، المرجع السابق، ص 23.
- 37 رمضان تسعديت، المرجع السابق، ص 98. وينظر أيضا جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- 38 جمال مختار وآخرون، المكان نفسه.
- 39 ألفريد بل، المرجع السابق، ص 67. وجمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- 40 رمضان تسعديت، المرجع السابق، ص 98. ومها عيساوي، المرجع السابق، ص 23.
- 41 رمضان تسعديت، نفسه.
- 42 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- 43 المكان نفسه. و مها عيساوي، المرجع السابق، ص 24.
- 44 ألفريد بل، المرجع السابق، ص 64.
- 45 نفسه.
- 46 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446.
- 47 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 65.
- 48 ألفريد بل، المرجع السابق، ص 55.
- 49 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 451.
- 50 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 65.
- 51 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 64. وجمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 446. وشارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية من البدحى حتى الفتح الإسلامي 647م، تر: محمد مزالي والبشير بوسلامة، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1969، ص 128.
- 52 سلاطينية عبد المالك، المرجع السابق، ص 98-99.
- 53 نفسه. وجمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 450.
- 54 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 450.
- 55 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 62.
- 56 جمال مختار وآخرون، المرجع السابق، ص 450.
- 57 محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 62.
- 58 أحمد صفي، المرجع السابق، ص 114.
- 59 نفسه، ص 114-115.
- 60 Ahmed Ferjaoui, recherche sur les relation entre l'orion phénicien et carthage, éd Beit Elhikma, carthage, 1992, p395.
- 61 محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي... المرجع السابق، ص 148. رمضان تسعديت، المرجع السابق، ص 98-99.
- 62 محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي... المرجع السابق، ص 71-80. للإشارة فإن القرطاجيين كانوا يعبدون آلهة متعددة كما كان الشأن بمجموع الأمم القديمة فملقرط "ملك المدينة" كان له مكانته في قرطاج وكذلك في بقية المراكز التي أسستها صور - وأشمون وأوزيس؛ الذي شيد

له معبد في المدينة، كما هو الشأن للمقراط" إله التجديد"، وتفيدنا النقوش أن عشترت وبعل - حداد - وبعل - إيدير وألهة أخرى كان لها من يعيدها. ينظر: شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 118.

⁶³ رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 119.

* كلمة بعل: هي اسم أكبر إله عند الفينيقيين وعند القرطاجيين؛ وتدل كذلك على معنى السيد أو صاحب الشيء أو مالكة كذلك كانوا يستعملون أيضا كلمة (ملك) أو (رب)؛ بمعنى بعل، ومثال ذلك موجود في اللغة العربية، فإن الرب معناه السيد أو المالك وصاحب الأمر والسلطة وهو أيضا الله تعالى، وكلمة بعل من هذا النوع هي كلمات مترادفة لها مدلول واحد. وبما أنه كان لكل مدينة بعل تقدسه وتعبده؛ فقد صار كل بعل يعرف بالمكان الذي يعبد فيه فيقولون: (بعل روس) أي بعل الرأس (بالمعنى الجغرافي) و(بعل اسمين)؛ أي بعل السماوات... ينظر: أحمد صفي، المرجع السابق، ص 115.

⁶⁴ نفسه، ص 117.

⁶⁵ نفسه، ص 120.

⁶⁶ المكان نفسه.

⁶⁷ شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 118.

⁶⁸ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي...، ص 146.

⁶⁹ محمد الهادي حارش، دراسات... المرجع السابق، ص 8-12.

⁷⁰ أحمد صفي، المرجع السابق، ص 116.

⁷¹ رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 119. أحمد صفي، المرجع السابق، ص 116. و شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 119.

⁷² رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 208.

⁷³ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي...، ص 145.

⁷⁴ رشيد الناضوري، المرجع السابق، ص 209.

⁷⁵ شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 48. محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي...، ص 148.

⁷⁶ حارش محمد الهادي، التاريخ المغاربي...، ص 153.

⁷⁷ شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 120.

⁷⁸ محمد البشير شنتي، المرجع السابق، ص 260.

⁷⁹ نفسه.

⁸⁰ أحمد صفي، المرجع السابق، ص 116.

⁸¹ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي...، ص 82. محمد البشير شنتي، المرجع السابق، ص 260.

⁸² محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي...، ص 83.

⁸³ المكان نفسه. و شنتي محمد البشير، المرجع السابق، ص 260.

⁸⁴ أحمد صفي، المرجع السابق، ص 121. وحارش محمد الهادي، التاريخ المغاربي...، ص 148-149.

⁸⁵ أحمد صفي، المكان نفسه.

⁸⁶ شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص 79.

⁸⁷ أحمد صفي، المرجع السابق، ص 121.

⁸⁸ نفسه، ص 121-122.